مجلة جامعة دمشق للعلوم القانونية

اسم المقال: قاسم بن صلاح الدين الخاني وجهوده في علم الكلام والتصوف (ولد سنة: 1028هـ - 1619م، وتوفي سنة: 1109هـ - 1697 م)
اسم الكاتب: أسماء عكاش، د. عهد جزماتي
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/10235
تاريخ الاسترداد: 2026/11/22 17:16 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للعلوم القانونية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

مجلة جامعة دمشق للعلوم القانونية
المجلد 3 (2) – 2023 : 198-173

Damascus University Journal of Legal Sciences
Vol 3 (2)- 2023: 198-173

قاسم بن صلاح الدين الخاني وجهوده في علم الكلام والتصوّف
(ولد سنة: 1028هـ – 1619م، وتوفِّي سنة: 1109هـ – 1697م)

أسماء عكاش[1] ، د. عهد جزماتي[2]

1. طالبة ماجستير– قسم العقائد والأديان– كلّيّة الشريعة– جامعة دمشق.
2. مدرس في قسم العقائد والأديان– كلّيّة الشريعة – جامعة دمشق.

الملخص

كان للحضارة الإسلاميّة على مرِّ العصور إنجازات عظيمة في شتّى الميادين، وسيعرض هذا البحث السيرة الذاتيّة للشيخ قاسم بن صلاح الدين الخاني الّذي عاش في نهاية عصر التوقّف وبداية عصر الانحطاط في الدولة العثمانيّة، العصر الّذي عانى فيه المسلمون من ضعفٍ في النواحي السياسيّة والاقتصاديّة والعلميّة وغيرها.

وكان الخاني أحد الأعلام الّذين اهتمّوا بالحفاظ على الجذوة العلميّة والأخلاقيّة للإسلام رغم الظروف القاسية الّتي كان يعاني منها المسلمون، وقد ترك بضعة كتبٍ، منها: (السير والسلوك إلى ملك الملوك)، وكان كلامه فيه عن التصوّف، وكتاب: (شرح الجزائريّة في التوحيد)، وهو كتاب عظيم حوى جميع ما يُحتاج إليه من الأمور العقديّة على مذهب السادة الأشعريّة، وبدا فيه طابع التصوّف أيضاً، وغيرهما من الكتب الّتي لم تصل إلينا كلّها.

الكلمات المفتاحية: قاسم الخاني، علم الكلام، التصوّف.

تاريخ الإيداع:2021/8/23
تاريخ القبول: 2021/11/29

حقوق النشر: جامعة دمشق –سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

ISSN (online)
http://journal.damascusuniversity.edu.sy/index.php/index/index

Qasim bin Salah al-Din al-Khani and his efforts in theology and mysticism He was born in the year: (1028 AH - 1619 AD, and died in the year: 1109 AH - 1697 AD)

Asmaa Akkash[1], Dr. Ahed Jazmati [2]

1. Master's student -Department of Beliefs and Religions- College of Shariaa- University of Damascus.
2. Department of Beliefs and Religions- College of Shariaa- University of Damascus.

Summary

Throughout the ages, Islamic civilization has had great achievements in various fields. This research will present the biography of Sheikh Qassim bin Salah al-Din al-Khani, who lived at the end of the endowment era and the beginning of the era of decadence in the Ottoman Empire, an era in which Muslims suffered from weakness in the political, economic, scientific and other aspects. Al-Khani was one of the prominent figures who were concerned with preserving the scientific and moral embers of Islam despite the harsh conditions that Muslims were suffering from. He left several books, including: (The Walk and Behavior to the King of Kings), and his speech in it was about Sufism, and a book: (Sharh Al-Jaza'iriya fi Tawheed). It is a great book that contains all the doctrinal matters needed by the Ash'ari madhhab, and the nature of Sufism appeared in it as well, and other books that have not all reached us.

Key Words: Qasim AI-Khani; Theology; Mysticism.

Received: 2021/8/23
Accepted: 2021/11/29

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

المقدّمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ على سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه وسلّم، وبعد:

كان الإسلامُ ولا يزال على مرّ العصور الفُلكَ المنجّي للبشريّة، وإنّ الحضارة الإسلاميّة رحِمٌ يتوالد منه العلم والعلماء، ربّما يقلُّ لبعض الأسباب ولكنّه لا ينقطع، وهذا البحث يبيّنُ أنَّ جذوة حبِّ دين الإسلام، والقيام بواجب حفظه علماً وتعليماً ودعوةً لا تنطفئ، ربّما تخبو ولكنّها ما تلبث أن تشتعل مهما أراد أعداء الإسلام إخمادها، وقد اخترت فترةً زمنيّة سُمّيت بعصر التوقّف والانحطاط، لندرسَ من خلالها ظروفَ العلمِ وطلّابِه وأحوالَهم، ليتبيّن لنا أنّه رغم إهمال التعليم على مستوى الدولة إلّا أنَّ جهود الناس أفراداً وجماعاتٍ قد أينعت وآتت أُكُلَها بإثبات حبّهم لدينهم وحرصهم وعزيمتهم على حفظه ونشره بكلّ ما أوتوا من قوّة علميّة وماليّة حتّى ببذل المُهج، فإنّ أسباب قوّة دين الإسلام تنبع من داخله، لأنّه دين الله تعالى ذو القوّة المتينُ، وهذا ما يبعث الأمل بداخلنا ويُؤكّد أنّ الخير في هذه الأمّة مستمرٌّ، فيحثّنا ذلك على أخذ دورنا في الحياة والقيام بمهمات الخلافة في الأرض على أفضل ما نستطيع.

وهذا البحث يُسلّط الضوء على جهد علَمٍ من أعلام حلب، كان قد ساعد في حفظ العلوم ونشرها، ولكنْ لم يُشتهر ذكره، ولم تلقَ كتبُه العنايةَ والاهتمام كما ينبغي، فلم أجد أيَّ دراسة سابقة عنه أو عن كتبه، العالِمُ الّذي سنبحث عن مسيرته العلميّة هو: الفقيه الصوفي المتكلّم قاسم بن صلاح الدين الخاني.

يتكوّن العمل من مبحثين اثنين:

المبحث الأوّل: للحديث عن سيرته الذاتيّة ونشأته العلميّة، وفيه مطالب:

المطلب الأوّل: للحديث عن سيرته الذاتيّة،

والمطلب الثاني: للحديث عن أحوال عصره،

والمطلب الثالث: للحديث عن شيوخه، **والمطلب الرابع للحديث عن تلاميذه،**

المبحث الثاني: لدراسة جهوده وآثاره العلميّة،

المطلب الأوّل: عن مؤلّفاته،

والمطلب الثاني: عن جهوده في الدراسات الإسلاميّة، **والمطلب الثالث: دراسة كتابه:** "شرح الجزائريّة في التوحيد" وبيان منهجه الاستدلالي فيه، والمطلب الرابع: لبيان بعض المسائل التي عالجها الخاني في كتابه، ثمّ تكون الخاتمة لذكر أهم نتائج البحث، ثمّ فهرس المصادر.

سألتزم بقواعد البحث العلمي الحديثة: كالتقسيم المنهجي في العرض، والتوثيق والعزو والتخريج والتعريف بما يلزم من الأعلام، وسأتّبع المناهج الملائمة في الدراسة: كالمنهج التاريخي والوصفي، والاستنتاجي والمقارن والنقدي حيث يتطلّب الأمر.

المبحث الأوّل: سيرة الخاني الذاتيّة ونشأته العلميّة:

المطلب الأول سيرته الذاتيّة:

قاسم بن صلاح الدين الخاني: فاضلٌ من أهل حلب، (1028–1109هـ)، (1619–1697م)، أشعريّ المعتقد، منطقي، متكلّم، محدّث، أصوليّ، صوفيٌّ.

قال معرّفاً عن نفسه: "ولدت سنة ثمانٍ وعشرين وألف، ثمَّ إنّي سافرت إلى بغدادَ في شهر جمادى الأولى سنة خمسين وألف، فكانت غيبةً طويلة مقدارَ سنتين، ثمَّ رجعت إلى حلب وأقمت بها شهرين، ثمَّ توجَّهت إلى البصرة فأقمت بها مدَّة عشرة أشهر، ثمَّ إنّي توجَّهت إلى حلبَ وأقمت بها عشرة أيّام، وتوجَّهت مع الحاج إلى مكَّة المشرفة ورجعتُ من الحجاز إلى إسلامبول وأقمت بها سنةً وسبعة أشهر، ثمَّ عدتُ إلى حلب. وكانت سياحتي هذه قريباً من عشر سنين، وأمّا في هذه المدَّة فكنت في أخذٍ وعطاء وبيع وشراء، ثمَّ إنّي بعد دخولي إلى حلبَ أحببتُ العزلة عن الناس، وتركت البيعَ والشراء، وسلكت طريق الذلّ والافتقار وغيَّرتُ الحلّاسَ والجلّاس والأنفاس، وجاهدتُ نفسي وعاديتُها بالجوع والسهر نحواً من سبع سنين (...) فلما انقضت سنوُّ المجاهدة القريبة من سبع سنين، واستهلينا شهر شوال سنة ستٍّ وستّين وألفٍ، ألقى الله تعالى في قلبي حبّ طلب العلم الظاهر، فقرأت على المشايخ سنتين إلّا شهراً، وفتح الله تعالى عليّ من العلم ما فتح، فتركت القراءة وشرعت في الإقراء فأقرأت بعض الطلبة، وكان أكثر الطلبة يضحكون ويستهزئون عليَّ، ويقولون: "نحن لنا عشر سنين نخدم العلم ، ولم نتجرّأ"، فيأتي بعضهم إلى مجلس درسي مستهزئاً، فوالله ما يقوم من ذلك المجلس إلّا وقد تبدّل إنكاره بالاعتقاد، وفي ثاني ذلك اليوم يأتي ويقرأ عليّ ويقول: هذا الأمر من خوارق العادة، وبقيت على ذلك سنة"[1].

وكانت وفاته سنة تسع ومائة وألف، ودفن بين قبور الصالحين خارج باب المقام بحلب رحمه الله تعالى[2].

المطلب الثاني أحوال عصره:

أوّلاً: من الناحية السياسية والاقتصاديّة والاجتماعيّة:

كان عهد السلطان "سليمان القانوني" يمثّل رأس الهرم بالنسبة لقوّة الدولة العثمانيّة ومكانتها بين دول العالم، ويُعدُّ عصر سليمان القانوني العصر الذهبيّ للدولة العثمانيّة، حيث شهدت سنوات حكمه من (926–972/ 1520–1566) توسُّعاً عظيماً لم يسبق مثيل، وأصبحت أقاليمُ الدولة العثمانيّة منتشرةً في ثلاث قارات عالميّة ثمّ بدأت مقدّمات ضعف الدولة تظهر في أواخر عهده، فانتهت عظمة الدولة العثمانيّة بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني[3].

ثمّ تولّى الحكم من بعده ابنه: سليم الثاني" الّذي لم يكن مؤهّلاً لحفظ فتوحات والده، فاقتصر على المحافظة على الأماكن المقدّسة والبحر الأحمر والخليج العربي من هجمات الصليبيّين، وقام السلطان سليم بتنظيم إدارة مدينة

1) انظر: (المرادي، 1979، 9/4، 10)

2) انظر: (الزركلي: 1980 ، 177/5)، (المرادي: 1997، 9/4، 10)، (سركيس: 1928، 1482/2).

3) انظر: (الصلابي، 2001، 202، 276).

حلب، فعيّن أحد قادته وهو أحمد بن جعفر الملقّب "قراجا باشا" والياً عليها، فأصبحت حلب أوّل ولاية عربيّة عثمانيّة، وعيّن كمال جلبي قاضياً فيها[4].

وتوالى سلاطينٌ غيرُ أكفاءٍ على الحكم إلى أن حكم "أحمد الأوّل" وعمره أربعة عشر عاماً، وكانت أحوال الدولة مرتبكةً؛ لانشغالها بحروب النمسا في أوروبا، وحرب إيران، والثورات الداخليّة في آسيا، فتوالت الهزائم على العثمانيّين، فتراجعت القوات العثمانيّة إلى الوراء باتجاه الدانوب، ففكّت النمسا حصار بلغراد، وفُتح الطريق لقوّات الحلفاء، وطُرد العثمانيّين من أوربّا[5].

وبسبب الضعف والتدهور السياسي عجزت الدولة عن مواجهة المشاكل الاقتصاديّة والاجتماعيّة الّتي أدّت إلى نشوب القلاقل الشعبيّة، فتعرّضت الدولة لثورات داخليّة عنيفة، وبدأت بالظهور النتائجُ السلبيّة لنظام الامتيازات الأجنبيّة، الّتي منحها السلطان سليمان القانوني لفرنسا، والّتي أصبحت فيما بعد ذريعةً للتدخّل الفعلي في شؤون الدولة العثمانيّة، فشكّلت حكومة داخل الحكومة العثمانيّة، وظهرت حركات داخليّة تهدف إلى هدم بنيان الدولة[6].

ثمّ شهدت البلاد منذ عام (1044هـ-1639م) وما بعده إصلاحات في الأمور الماليّة، حيث كانت الأوضاع الداخليّة شبه مستقرّة، فاتّجه الاقتصاد لإصلاح الجيش والأسطول، وإصلاح النقد، وإقامة نظام الضرائب على أسس جديدة، وقد شكّل الموقع الاستراتيجي للدولة العثمانيّة مركزاً تجاريّاً هامّاً في التجارة الدوليّة، إلى حين اكتشاف رأس الرجاء الصالح[7].

وقد عاصر الخاني الزمن الّذي شهد بداية اضمحلال الدولة العثمانيّة العالميّة، الّذي سُمّي "عصر التوقّف" (1683-1768م) حيث انتهت الدولة العثمانيّة العالميّة، وانتهى نفوذها الّذي كان يعبر القارات، ويُوجّه سياسة وتاريخ العالم، وبدأ العصر الّذي صارت فيه تحاول الحفاظ قدر المستطاع على ما تملكه[8].

وكان المجتمع يتصف بالطابع الطبقي، حيث انقسم المجتمع العربي والإسلامي إلى فئتين كبيرتين، فئة الحكّام العسكريّين، وفئة الرعايا المحكومين، وكانوا يتشاطرون المهمات فيما بينهم للحفاظ على استقرار وأمن الدولة، وكانت العلاقة بينهم تتراوح بين التفاهم والسلام، وبين الحرب والصراع، ورغم الاستبداد السياسي إلا أنّ الدولة حرصت على نشر العدل بين الرعايا، ولم يحصل اضطهاد لغير المسلمين في الدولة المسلمة[9].

4) انظر: (بيّات، 2003، 164/2).

5) انظر: (الصلابي، 2001، 288، 289، 297، 545، 546، 547)

6) انظر: (بك، 1896، 112، 113)، (الصلابي، 2001، 293، 298)

7) انظر: (الصلابي، 2001، 305، 306، 307)، (أوزتونا، 1988، 543/1).

8) انظر: (أوزتونا، 1988، 543/1).

9) انظر: (أوغلي، 1999 ، 526/1)، (الصباغ، 1986، 188) وما بعدها.

ثانياً: من الناحية الفكريّة والثقافيّة:

كانت مدينة حلب عامرةً مزدهرة في العصر الإسلامي الوسيط، فقد كانت إحدى أبرز حواضر العالم الإسلامي آنئذ، ومنارة من منارات العلوم والمعارف والآداب، فلم تزل تُبنى فيها المدارس الجامعة في مختلف التخصّصات العلمية حتى بلغت نحو ثلاثمائة مدرسة، هذا فضلاً عن الحلقات العلمية التي كانت تُعقد في المساجد ودور الحديث وغيرها من الأماكن التي كانت تتفجّر من خلالها ينابيع العلوم من منطوق ومفهوم، ولكنّها كانت على مرّ العصور مطمعاً للمجرمين فقد توالت عليها نكبات التتار ثمّ المغّول الّذين خرّبوا المدارس وأبادوا العلماء فجعلوهم ما بين قتيلٍ وجريحٍ وشريد عن بلده، وقد كانت تسترجع عافيتها ورجالاتها وعلماءها بصورة أقوى كلما مرّت بها المحن[10].

ولكن بعد كارثة المغول بقرابة قرن أضرّت بها عدّة أمورٍ، أدّت إلى التأخر والجمود الفكري، وتقلّص العلم في حلب وعودة مدارسها القديمة إلى ما كانت عليه من الخراب، منها:

1) سوءُ الأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، والعزلة النسبيّة الّتي كانت تعيشها البلاد العربيّة، فقد انغلقت الشعوب العربيّة على نفسها وأصبح مركز الثقل ومحور الاهتمام في القسطنطينيّة عاصمة الخلافة العثمانيّة[11].
2) عدمُ الوعي الصحيح بالإسلام وبمقوّماته؛ فظنّ الكثير من الحكّام ومن العوامّ أنّ الإسلام هو عباداتٌ فقط، ممّا أدّى إلى انتشار الطرق الصوفيّة بما فيها من الغثّ والثمين، وضعف الاجتهاد والإنتاج الفكري.
3) سوءُ أحوال الحكّام؛ فقد كانوا يتغاضَون عن القائمين على المدارس، فيتركون الّذين يستحوذون على الأوقاف يتصرّفون بها وبغلّتها وفق أهوائهم، دون أيّة مساءلةٍ أو رقابة.
4) عدمُ اهتمام الحكومة العثمانيّة بالتعليم، واكتفائهم من البلدات العربيّة بالخراج، فقد تركوا الناس على ما هم عليه من العقيدة والعادات، وأهملوا الدعوة ونشر العلوم الإسلاميّة، وأهملوا اللغة العربيّة لغة القرآن الكريم، إلّا قليلٌ منهم، فكانت المدارس قليلةً، وتركّز التعليم في الزوايا والكتاتيب والمساجد[12].
5) وقد أدّى انتشار الزوايا والأضرحة والمبالغة في الاعتقاد بالشيخ إلى نتيجتين خطيرتين وهما: تبسيط المعرفة وغلق باب الاجتهاد؛ لأنّ التعليم فيها كان يكتفي بالحدّ الأدنى، وربّما التفّ الناس حول الشيخ الزاهد البسيط رقيق العلم بدل أن يلتفّوا حول العلماء المحقّقين، ممّا اضطرّ بعضَ علماء المساجد إلى تبسيط علومهم والتنزّل بها ليستقطبوا الطلاب كي لا يفرّوا إلى الزوايا والمرابطين، ولا يخفى أنّ التعليم الّذي يقوم على هذه الأسس لا يترك مجالاً للاجتهاد وحريّة التعبير والرأي والبحث، فاكتفى أغلب العلماء بالشقشقة اللفظيّة والاقتصار على الفروع دون الأصول، فانتشرت الشروح والحواشي، وكانت أكثر الدراسات انتشاراً خلال

10) انظر: (ابن الشحنة، 1984، 3)، (الغزي، 1419، 134/1).
11) انظر: (الزرعي، 2002، 27)، (الشيال، 2017، 77، 78).
12) انظر: (ياغي، 1614، 257، 258).

العهد العثماني هي الدراسات الشرعيّة الإسلاميّة القرآنيّة والحديثيّة، والصوفيّة والمجالات الأدبيّة، وأهم ما تميّزت به العلوم الشرعيّة في ذاك العصر التقليدُ والتكرار والحفظ، وكان يُمنع التجديد والابتكار، ويُعاقب صاحبه إمّا بالعزل من وظيفته وربّما يُحكم عليه بالتكفير والتبديع، ومع ذلك فقد حاول العلماء العاملين تحطيمَ هذا الجمود والسعي إلى الإبداع[13].

وكانت غيرةُ أهالي حلب على دينهم، وحبَّهم للعلم وللعلماء وشغفهم باقتناء الكتب وبإعمار المدارس والمكتبات وحرصهم على التعليم سببَ حفظ سلسلة العلم المتّصل، فقد كان أغنياء حلب ينفقون الغالي والنفيس في سبيل نسخ الكتب واقتنائها، فكان نسخ الكتب حرفةً ناجحة يسترزق بها عددٌ كبير من الخطّاطين المهرة، وكان أكثرهم من طلاب العلم الفقراء، وكانت لهم وجاهةٌ ومكانة عظيمة عند العلماء والوجهاء والصالحين[14].

وكان عصر الخاني العصرَ التالي لحادثة المغول، عصر استخفاف بالعلم إلّا من بعض المخلصين الجادّين في طلب العلم فإنّ أمّة الإسلام لا يزال فيها الخير ممن يحملون همّ الدعوة، وكان الطلاب في حينها يدرسون على العلماء دون دعمٍ من الدولة.

فإذا نظرنا في سلسة إسناد العلم نجد أنّها كانت تتلقّى في بعض الأحيان فرادى من الأهل لأولادهم أو لبعض الطلاب لصعوبة التعليم حينئذ، فكانت عبارة عن جهود فرديّة من الأهالي لا تدعمها السلطة، وانظر إذا شئت إلى سلسلة شيوخ الخاني رحمهم الله تعالى.

المطلب الثالث: شيوخ الخاني:

كانت قراءته على جملة من العلماء الفضلاء، وجلُّها على الشيخ "أبي الوفا العرضي"، صاحب: "طريق الهدى"، وكان سلوكه على الشيخ أحمد الحمصي.

من سلسلة شيوخ قاسم الخاني: شيخ الإسلام أبي الوفاء محمد بن عمر بن عبد الوهّاب العرضي الحلبي (993–1071هـ) مفتي الشافعيّة في حلب وابن مفتيها، له اشتغال بالتأريخ والأدب، عن والده شيخ الإسلام عمر بن عبد الوهاب العرضي، (950–1024) قرأ على والده وهو صغير، علامة بالفقه والحديث والأدب، له من التآليف شرح على الشفا في أربع مجلّدات وشرح على العقائد وشرح رسالة القشيري، عن والده شيخ الإسلام عبد الوهاب بن إبراهيم العرضي الحلبي (ت967) مفتي الشافعيّة بحلب، عن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (824–926)، عن الحافظ ابن حجر العسقلاني (773–852هـ)[15].

من خلال ما سبق نلاحظ أنّ سلسلة المعلّمين في القرن الحادي عشر الهجري كانت ضيّقة نظراً لما سبقها من عصور العلم الذهبيّة، فربّما لا يجد الطالب إلّا معلّماً في الفنِّ الواحد أو ربّما معلّماً واحداً لعدّة فنون، وذلك للأسباب آنفة الذكر.

13) انظر: (سعد الله، 1998، 9/2).

14) انظر: (الغزي كامل، 1419، 158... 176).

15) انظر: (الزركلي، 1980، 177/5)، (الكتاني، 1981، 737/2)، (الغزي محمد، 1997، 157/3).

المطلب الرابع: تلاميذ الخاني:

صرّح الخاني بأنّه جلس سنة للتدريس، وذلك بعد أن قرأ سنتين إلّا شهراً على المشايخ، وبعدها استلم التدريس في المدارس[16]، وقد ذُكر في الكتب عددٌ من تلاميذه، وهؤلاء التلاميذ هم:

رمضان بن عبد الرحمن بن أحمد العطار الحلبي الشافعي الشيخ الفاضل الكامل ولد بحلب قبل المائة وقرأ على أفاضل بلدته كالشيخ مصطفى الحفسرجأوي الفاضل والشيخ جابر والشيخ السيد محمد الكبيسي وأخذ عن العارف الشيخ قاسم الخاني طريقة القادرية (ت 1123)، وأفاد وكان عفيفاً سخياً كثير الذكر ملازماً للعبادة والإفادة والاستفادة يقري الفقه بين العشائين[17].

صالح بن رجب الحنفي الحلبي العارف القادري الخلوتي، يُروى أنّه كان معتكفاً مع شيخه العالم الرباني الشيخ قاسم الخاني في الخلوة الأربعينية بالمدرسة الحلاوية فأخبر شيخه بمجئ ولده "المترجم" فسماه الشيخ الخاني: "محمد هداية الله" فحصلت الهداية له، فنشأ المترجم مكبّاً على طلب العلم، وتفقّه على والده وأخذ عنه الطريق وسلك على يديه وأخذ العلم قراءةً ومشافهةً وإجازةً على كثيرين منهم الشيخ سليمان النحوي[18]. عبدُ الغنيّ بنُ صلاح الدين الخاني (1048–1095هـ) الحنبليّ الحنفيّ الأديب الأريب، نزيل المدينة المنورة، ولد بحلب وقرأ بها واشتغل ورحل لكثيرٍ من البلدان للتجارة فدخل الشام ومصر والروم واليمن والعراق، ثم ترك الأسفار واشتغل على أخيه ومربيه الشيخ قاسم الخاني بحلب وبه تخرّج وقرأ عليه كثيراً من مؤلّفاته، ثم جاور بالحرمين وأقام بطيبة، وأكبّ على تحصيل العلم وانهمك، ولازم شيخ العصر إبراهيم الكردي الكوراني وأخذ عنه الطريق، حتّىٰ ألّف الرسائل اللطيفة، وتولّى بالمدينة المناصب العليّة، وتوفّي بالمدينة ودفن بالبقيع[19].

المبحث الثاني: جهوده وآثاره العلميّة:

وسيكون الحديث فيه عن مؤلّفاته، وعن جهوده في العلوم الشرعيّة، ثمّ سيكون الكلام عن كتابه: "شرح الجزائريّة في التوحيد" وهو في علم الكلام.

المطلب الأوّل: مؤلفات الخاني:

ترك الخاني عدداً من المؤلّفات، لم يُطبع منها إلّا كتاب "السير والسلوك إلىٰ ملك الملوك"، وسائر كتبه بقيت حبيسة المكتبات لم تر النور بعد، ولم أستطع الحصول على جلّ كتبه، فالّذي استطعت العثور عليه عرّفت به تعريفاً مختصراً، والّذي لم أعثر عليه اكتفيت بذكر اسمه فقط، وهي:

1) كتاب "السير والسلوك إلى ملك الملوك": بيّن فيه معاني المصطلحات الصوفيّة، وتكلّم عن ذمّ الدنيا ولذّاتها، فحثّ على سلوك طريق التصوّف وبيّن فضله، وبيّن الحجب الّتي تكون بين العبد وربّه، ثمّ عدّد للنفس سبع

16) انظر: (المرادي، 1997، 9/4، 10).

17) انظر: (المرادي، 1997، 249/1).

18) انظر: (المرادي، 1997، 94/2).

19) انظر: (المحبي، 2006، 90/2).

مراتب وبيّنها، وهي النفس الأمّارة، والنفس اللّوامة، والنفس الملهمة فالمطمئنّة فالراضية فالمرضيّة فالكاملة، ثمّ ختم في بيان صفات المرشد وبيان أوضاعه وأحواله.

2) "رسالة في المنطق" وهي رسالة مؤلفة من اثنتي عشرة ورقة، اشتملت على أكثر مقاصد علم المنطق، وقد رتّبها على أربعة أبواب؛ الباب الأوّل: في بيان الجزئي والكلّي، والباب الثاني: في قول المعرِّف أي الشارح، **والباب الثالث: في بيان القضايا وتقسيمها، والباب الرابع: في القياس وأقسامه.**

3) "شرح مختصر السراجية" وهو في الفرائض، ويُعرف أيضاً بفرائض السجاوندي[20] وقد شرحه أيضاً السيّد الشريف الجرجاني[21].

4) "شرح الجزائرية في التوحيد" وهو اختصار لشرح محمد بن يوسف السنوسي[22] المسمّى "المنهج السديد" على منظوم "اللاميّة في العقائد الإيمانيّة" لأحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي[23]، وهو المخطوط الّذي سندرس عنه في هذا البحث.

5) رسالة "التحقيق في الرد على الزنديق" عدد صفحاته ثلاث عشرة ورقة موجود في جامعة الملك سعود.

6) "رسالة في بيان الردة وأحكامها" وهو كتاب يبيّن ألفاظ الكفر على مذهب الإمام الشافعي.

7) "مختصر السراجيّة"، و"شرح السراجية" وهما في الفرائض.

8) "المجالس في الحكم والمواعظ".

9) "سرّ فتح الملك المجيد في انتقال المريد".

10) "رسالة في مصطلح الحديث".

11) "الطريق الواضح إلى عقيدة السلف الصالح"[24]

---

20) سراج الدين أبو طاهر محمد بن محمد بن عبد الرشيد بن طيفور، السجاوندي الغزنوي الحنفي، (ت 600 هـ)، رياضي حنفي فرضي، من كتبه: "السراجيّة" و"الوقف والابتداء" و"الجبر والمقابلة"، انظر: (الزركلي: 1980، 27/7)، (حاجي خليفة1941، 1247/2)، (البغدادي، 1951، 106/2).

21) الجرجاني: علي بن محمد المعروف بالشريف الجرجاني (740- 816) أديب متكلّم فيلسوف، درس في شيراز وتوفّي فيها، درس على قطب الدين محمد الرازي بهراة، له قرابة خمسين مؤلَّفاً، منها: "التعريفات" و"شرح المواقف للإيجي"، انظر: (سركيس، 1928، 678/1، 680).

22) السنوسي: محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي (832-895) كبير علماء تلمسان وزهادها وإمامها، من مشايخه عبد الرحمن الثعالبي وأبو القاسم الكنابشي البجائي، له مؤلّفات كثيرة، منها: المنهج السديد في شرح كفاية المريد، وكتاب أم البراهين، انظر: (الحفناوي، 1906، 176، 177)، (نويهض: 1980، 180، 181)، (حاجي خليفة: 1941، 1501/2)، (ابن مريم، 1908، 237)، وما بعدها

23) الجزائري: أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي، شهاب الدين، أبو العباس، من كبار العلماء في وقته، سكن مدينة الجزائر وتوفي بها، (800-884هـ)، من مشايخه الثعالبي، له نظم: اللاميّة في الكلام، وتُسمّى: "كفاية المريد" وتُسمّى: "الجزائريّة في العقائد الإيمانيّة" انظر: (الحفناوي، 1906، ص34، 62، 68)، (نويهض، 1980، 90، 91، 96، 97)، (حاجي خليفة: 1941، 2/ 1539، 1540)

24) انظر: (البغدادي، 1951، 833/1)، (الزركلي، 1980، 177/5)، (المرادي، 1997، 68/2، 69).

المطلب الثاني: جهوده في الدراسات الإسلاميّة:

أوّلاً: جهوده في ميدان الدعوة والتدريس: عمل الخاني مدرّساً في المدرسة الأشرفية إلى أنْ توجّه عليه التدريس في المدرسة الحلويّة، فصار يدرّس بها ويقيم الأذكار والأوراد وتوجّه عليه الإفتاء بحلب وكان يفتي على مذهب الإمامين أبي حنيفة والشافعي.

ثانياً: جهوده في الفقه والحديث والتفسير: **أمّا في الفقه:** فقد توجّب عليه الإفتاء في حلب، وكان قد درس الفقه على شيخه أبي الوفا العرضي، واختصر كتاب السراجيّة في الفرائض، وشرحه، ولم أجد له تأليفاً في الفقه غيرهما، وله رسالة في مصطلح الحديث، أمّا في التفسير فلم أجد له تأليفاً فيه.

ثالثاً: جهوده في التصوّف: تظهر شخصيّة الخاني الصوفيّة جليّةً في عصره؛ فهو قد تتلمذ على شيخه أبي الوفا العرضي صاحب السلوك الصوفي في ذلك العصر، وشخصيّته الصوفيّة قد برزت في بعض كتبه، وأكثر ما تجلّت في كتابه "السير والسلوك إلى ملك الملوك" حيث كان كتاباً كاملاً على مشرب التصوّف، وسأرجئُ بيان منهجه الصوفيّ بشكل أوضح إلى موضع الحديث عن كتابه "شرح الجزائريّة في التوحيد"، فقد كان يصرّح برأيه على مشرب السادة الصوفيّة بعد عرضه لمذهب المتكلّمين في أصول الدين، ويُظهر ألّا تعارض بين المذهبين بل بينهما توافقٌ وتكامل، فالحقُّ يعضدُ بعضُه بعضاً، فعِلمُ الكلام يبني العقيدة ويُصحّحها، والتصوّف سلوكٌ يغذّي الروح ويزكّيها، فتتطهرَ وتستعدّ لتلقّي معارف أكثر، قال الله تعالى: {واتّقوا الله ويعلّمكم الله} (البقرة:282).

رابعاً: جهوده في علم الكلام: ألف الخاني في علم الكلام كتاب "شرح الجزائريّة في التوحيد"، وهو ليس من الكتب الأمهات، ولكنّه حوى جميعَ ما يحتاج إلى تعلّمه طالبُ علم العقيدة الإسلاميّة المبتدئ، فجاء مختصَراً مقتصِراً على المقصود الّذي لا بدّ منه لمعرفة هذا العلم، وسأفصّل الكلام عنه عند دراسة الكتاب.

المطلب الثالث: دراسة كتاب "شرح الجزائريّة في التوحيد" وبيان منهجه الاستدلالي فيه:

أوّلاً: دراسة مختصرة عن الكتاب:

إننا أمام سِفرٍ جليل، يبحث في أعلى العلوم قدراً وأهمّيّةً لأنه يبحث في أساس الأحكام الشرعيّة؛ وهو علم التوحيد المنجّي من ظلمات الشكوك والأوهام، وقد اهتمّ العلماء بهذا العلم نظماً وشرحاً واختصاراً، وكتابنا هذا قد توالى على العناية به ثلاثةُ علماء، فالكتاب يحتوي بداية على أبيات مهمة من المنظومة المسماة "اللاميّة" أو "الجزائرية في العقائد الإيمانية" وهي نظم الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائريّ الزواويّ "880–884هـ" رحمه الله تعالى، وهي عبارة عن قصيدة قرابة الأربعمئة بيت، اشتملت على طريقي هداية العوامّ والعلماء، ففيها جمال النظم المستميل للطباع، وتقرير الأدلّة البرهانيّة للعقائد الإيمانيّة، على طريقة السادة الأشاعرة.

وقد شرح هذه المنظومة قدوة المتقين الإمام محمّد بن يوسف السنوسيّ "832–895هـ" رحمه الله تعالى بكتابه: "المنهج السديد في شرح كفاية المريد" شرحاً وافياً كافياً، يُروي الغليل ويشفي العليل، فيخرج منه قارئه وقد ألمّ بالمعاني العقديّة على مذهب الأشاعرة.

ثمّ جاء الشيخ الخانيّ رحمه الله تعالى فشرح كتاب السنوسيّ بكتابه: "شرح الجزائريّة في التوحيد"؛ لأجل الاقتصاد على المطلوب، خشية ملل الطلاب من زيادة الإطناب، فأظهر الشرح بعبارات واضحات، تُظهِر ما خفي ودقّ من شريف المطالب، فكان كتابُه مقتصداً في الكَلِمِ، جامعاً فيه فوائد هذا العلمِ.

وقد قسم الخاني الكتاب إلى قسمين:

القسم الأوّل في علم الكلام: حسب مذهب السادة الأشاعرة، وقد اشتمل على أقسام العلوم الّتي تُحتاج في العقيدة، وهي: الإلهيّات والنبوّات والسمعيّات

القسم الثاني في التصوّف: دعا فيه إلى العودة إلى الله عزّ وجلّ، والتحرّر من أغلال الدنيا وربقة الأهواء، والاعتماد على البراهين العقليّة والنقليّة الصحيحة، متّبعين في ذلك سنن السلف الصالح؛ لأجل الفوز برضا ربّ العالمين وسعادة الدارين.

فبدأ كتابه بمقدّمة تُبيّن المقصودَ من هذا الكتاب، وسببَ عمله فيه، وتلا المقدّمةَ ثلاثةٌ وثلاثون فصلاً، وقد اتّبع منهجَ علماء الكلام في ترتيب كتابه، فبدأ بمقدّمات تُبيّن أهميّة هذا العلم، وأهمّيّة تعلُّمه، ووجوب معرفة الأحكام الواجبة والممكنة والمستحيلة في العقيدة، فوضّح أحكام وجوب النظر، وأفرد فصلاً مُطوّلاً لعرض الأمور الطبيعيّة وبيان دلالة تنسيقها وترتيبها على وجوب وجود بارئٍ مدبّرٍ حكيم أوجدها من العدم، ثمّ استدلّ بحدوث العالم الطبيعي على وجود الله تبارك وتعالى، ثمّ تطرق لمسائل الصفات الإلهية، واتّبع في تقريرها وعرضها طريقة التقسيم إلى صفات نفسية، وصفات سلبيّة تنزيهيّة، وصفات معانٍ، وصفات معنويّة، ثمّ تكلّم في الصفات السمعية، ووجوب التنزيه عن الظاهر المحال منها، ثم أخذ بالكلام عن أمور توقيفيّة ورد السمع بها؛ كأسماء الله الحسنى، وجواز رؤية المولى جلّ وعلا، ثمّ تحدّث عن النبوّات والكرامات، وأحكام الإمامة، ثمّ تحدّث عن أمور الآخرة الغيبيّة كالبعث والحشر والنشر والصحف والصراط والحوض والشفاعة، ثمّ ختم الكتاب بأمور تتعلّق بتزكية النفس وما تحتاج إليه من تخليةٍ وتحلية، ليستقيم للعبد إيمانُه ويسلم له دينُه، فينجوَ من العقاب وينال أوفى رضا وثواب.

ولا يخفى التكاملُ والتناسق البيّن بين موضوعات الكتاب ومسائله، وسأعرض مثالاً عن ذلك مسألة النظر مثلاً، فنجدُ أنّه بدايةً قرّر أنّ حكم النظر واجبٌ، فقام بتعريفه، ثمّ أتبعه بأنّ الموجب للنظر هو الشرعُ لا العقل، وذكرَ آياتٍ كريمات تدلّ على ذلك، ثمّ ناسب بعد ذلك ذكرُ الأداة والطريقة الصحيحة لاستعماله، فالأداة: هي العقل، والطريقة: هي النظر الصحيح عن طريق الاعتبار بالمخلوقات للتوصّل من خلالها لمعرفة الله عزّ وجلّ الّذي برأها، وأتبع ذلك بالكلام عن النظر في المخلوقات.

ونلاحظ أنّه قد سبق مسألةَ النظر بيانُ حكم التقليد بعقائد التوحيد، وبيّن أنّه لا يكفي التقليدُ في أصول الدين للنجاة، بل لا بدّ من النظر ليكون الإيمان يقينيّاً راسخاً لا تَنالُ منه الشُّبَهُ، وذلك يكون عن طريق النظر في الأدلّة اليقينيّة الموجبة للعلم الصحيح.

وهكذا يتضّح من خلال النظر في هذه المسألةِ المشاكلةَ الظاهرة بين المعلومات، والترتيبَ العلميّ البيّن فيما بينها، فالتقديمُ والتأخير معلّلٌ بالعلل الظاهرة.

أمّا لغة الكتاب فقد كانت لغة فصيحة واضحة سهلة، ولا يخفى أنّ اللغة أداةٌ لفهم العلوم، وبقدر التمكّن منها يكون النجاح في فهم القرآن الكريم والسنة الشريفة وأقوال العلماء واجتهاداتهم، والمُتتبّع لهذا الكتاب يلحظ اهتماماً بالغاً باللغة العربيّة من حيث المعاني اللغوية والاصطلاحية، واللغات والإعراب، فلا يكاد يخلو فصلٌ أو مطلب من إعرابٍ أو شرحٍ لمفرداتٍ ولتراكيب.

ثانياً: منهج الخاني في الاستدلال بالأدلّة النقليّة والعقليّة والذوقيّة في الكتاب:

استخدم الخاني رحمه الله تعالى أساليب المتكلّمين والصوفيّة رحمهم الله تعالى في كتابه، فنهج نهجهم في الاستدلال، وكان بين استدلالاته النقليّة والعقليّة والذوقيّة توافقٌ، يُكثر من أيٍّ منها حيث تستدعي الحاجة، وذاك أنّ عقائد الإيمان تنقسم من حيث الاستدلال عليها إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: ما لا يصحُّ أن يُعلم إلّا بالدليل العقليّ؛ وهو كلُّ ما توقّفت دلالة المعجزة عليه، كوجوده تعالى وإرادته وقدرته وعلمه وحياته.

الثاني: هو ما يصحّ أن يُستدلّ عليه بالدليل الشرعيّ، وهو كلّ ما لا تتوقّف دلالة المعجزة عليه، كالسمع والبصر والكلام وأحوال الآخرة.

الثالث: هو ما اختلف فيه؛ للتردّد أمن القسم الأوّل هو أم من القسم الثاني، مثاله: صفة الوحدانيّة لله تعالى.

وكلا الدليلين العقليّ والنقليّ شرعيّان، أجازت الشريعة الاستدلالَ بهما، وأوجبت العمل بكلٍّ منهما في مكانه، فالدليل العقليُّ هو ما لم تستند أيٌّ من مقدّماته في إثباتها إلى النقل، والدليل النقلي هو ما استند في مقدّماته إلى النقل. وفيما يلي بيان استخدام الخاني للأساليب النقليّة والعقليّة والذوقيّة:

أوّلاً: المنهج النقلي عند الخاني:

اهتمّ الخاني رحمه الله تعالى بالنقل، فكان يَستدلّ بكثيرٍ من نصوص القرآن الكريم ويستشهد بها، وببعض الأحاديث النبويّة الشريفة، وببعض أقوال العلماء، حيث ما دعت الحاجة لذلك، فقد بلغ عدد الآيات الكريمات الّتي استشهد بها في القسم الإلهيّات واحداً وثمانين آية، أكثرها في فصل الحثّ على النظر في المخلوقات، حيث بلغ عددها ثلاثين آية وخمسة أحاديث في هذا الفصل وحده، بينما لم يستخدم الأدلّة النقليّة في بعض الفصول الّتي تستوجب الاستدلال العقليّ.

وقد استدلّ على إثبات صفات السمع والبصر والكلام بالأدلّة النقليّة من القرآن والسنة، وقال بعدم صحّة الاستدلال عليها بالعقل، فقال: "فالحقُّ الاعتماد في السّمع والبصر وفي صفة الكلام أيضاً على النّقل"[25]

ثانياً: المنهج العقلي عند الخاني:

25) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة 27أ.

كان للمنهج العقلي لدى الشيخ الخاني النصيبَ الوافر؛ فقد انفردت عنده فصولٌ كاملةٌ بالأدلّةَ العقلية، وهذا بسبب تقرير أمور لا يصحُّ تقريرها بالنصوص، لئلا يلزم الدورُ أو التسلسل.

كان يبني الأحكامَ العقائديّة على الأصول المنطقيّة مثل: نفي التسلسل ومنع الدور، ومنع اتّصاف الواجب بالحوادث، ولزوم وجوب الحياة والعلم والقدرة والإرادة والاختيار للباري الموجد من العدم.

واتّبع لبيان ذلك أساليبَ المتكلّمين كالاستدلالِ بالشاهد على الغائب، والقياس بأنواعه، والسبر والتقسيم، واستخدم أدلّةً عدّةً مثل: دليلِ الحدوث ودليل الإمكان.

1) من الملفت للنظر أنّه لم يستخدم دليلَ الإتقان والعناية مع أنّ أبيات المنظومة الجزائرية طافحةٌ بالإشارة إلى إتقان الصناعة، وتعليل بعض المخلوقات لصالح بعض، وإنّما اكتفى بتوجيهها إلى دليلي الحدوث والإمكان، ولعلّ الّذي حمله على ذلك كون الأبيات واضحة الدلالة على هذا الدليل.

2)**دليل الحدوث:** إنّ وجودَ الحياة في النبات والحيوان، وما يطرأ من حياةٍ على العناصر غير العضويّة، ووجود أجرام العالم الّتي كانت بعد أن لم تكن، وما يطرأ عليها من تبدّل الأعراض، دليلٌ على حدوثها بعد عدمها القديم، وافتقار كلّ حادثٍ منها إلى القادر المختار المنزّه عن الشريك والمعين والواسطة، وهذا ما أشار إليه الخاني رحمه الله تعالى، فقال:

"كلّ ما تراهُ وتحسُّ به فهو مخلوقٌ للهِ، وهو دليلٌ على وجودِه تعالى، ونظمُ الدليلِ في كلِّ موجودٍ ممكنٍ أنْ تقولَ: هذا مصنوعٌ، وكلُّ مصنوعٍ فله صانعٌ، فهذا له صانعٌ"[26]

فأمر بإدارة النظر في المخلوقات المحدثة من السماوات والأرض على طريق الاعتبار لنستنتج أنّها قد وُجدت بعد أن لم تكن، فيتبيّن لنا حدوث العالم، ووجوب وجود المحدث له الّذي لا يشبهها بوجه من الوجوه، فقال: "أنَّ المطالبَ المنجيةَ من الجهل معرفةُ حدوثِ العالَمِ، ثم معرفةُ وجودِ الصانعِ تبارك وتعالى"[27]

3)**دليل الممكن والواجب:** الممكن هو الّذي لا يجب وجوده ولا عدمه، فالعالم ممكن؛ لأنّ الأعيان مركّبة بأجزائها أو بأمثالها، والتركيب ينافي الوجوب، ثمَّ إنَّ الأجسام متماثلةٌ، فاختصاص كلِّ جسمٍ بما له من الصفات جائزٌ، فلا بدّ للتخصّيص من مخصّصٍ، فإنَّ التنوّع في المخلوقات يدلّ على وجود من خصّصها ببعض الصفات دون بعض؛ لأنّ الجواهر تتساوى في قبول الأعراض، بيّن ذلك الخاني رحمه الله تعالى فقال:

"فإذا ثبتَ الحدوثُ لجميع الممكناتِ لزمَ أنْ يكونَ لها فاعلٌ (...) انظروا واعتبروا في خلق السماوات والأرض، وفيما اشتملت عليه الأرض من الأنواع المتباينة المنوَّعة؛ أي: المشتملُ كلُّ نوعٍ منها على أصنافٍ، وكلُّ صنفٍ على أفرادٍ لا يمكنُ حصرُها بالعدِّ، وانتقلوا منها إلى معرفة موجدها"، فهذا التنوّع في المخلوقات يدلّ على وجود مخصّصٍ أوجده باختياره"[28]

---

26) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة 5أ ب.

27) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة 6أ.

28) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة 7أ.

4) **دليل الخلف:** استخدم الخاني رحمه الله تعالى أسلوب إلزام الخصم بلوازم كلامه وذلك باستخدام أسلوب الخلف الّذي أساسه البرهنة على صحّة المطلوب بإثبات فساد نقيضه، أو فساد المطلوب بإثبات صحّة نقيضه، وذلك حينما أبطل قول الفلاسفة بأن الأفلاك قديمة وحركاتها حادثة؛ لأنّهم يُقرّون بأنّ جميع حركات الفلك حادثة، أي أنّ كلّ فردٍ منها كان بعد أن لم يكن، ثمّ يزعمون أنّ هذه الأفراد من حيث المجموع لا أوّل لها، وهذا باطل، فقال:

"قولُ الفلاسفة لا يرضى به عاقلٌ، لأنَّهم مذعنون بأنَّ جميع حركات الفلك حادثةٌ؛ بمعنى: أنَّ كلَّ فردٍ منها كان بعد أنْ لم يكن، مع أنَّهم يزعمون أنَّ هذه الأفراد من حيث المجموع لا أوَّلَ لها، وهو باطلٌ بالضرورة لأنَّنَا إذا ركَّبْنا قياساً من الشكل الأوّل وقلنا: إنَّ كلَّ فردٍ من أفراد الحركة كانَ بعد أنْ لم يكنْ، وكلُّ ما كان كذلك فله أوّلٌ، ينتجُ أنَّ جميعَ حركات الفلك لها أولٌ، وكلُّ ما كان له أولٌ فهو مسبوقٌ بالعدمِ، فجميع حركاتِ الفلكِ مسبوقةٌ بالعدم فلا يتّصف بها الفلكُ في القدم على تقدير قدمه"[29]

واستخدم دليل الخلف أيضاً عندما أثبت فسادَ ما ذهبت إليه الثنويّة القائلين بإلهين اثنين، وذلك عندما أثبت بطلان أن يكون الإله مركّباً أو أن يكون له نظير في صفاته وأفعاله، فأظهر بذلك بطلان مذهب الثنويّة وصحّة مذهب أهل التوحيد[30]، قال في ذلك: " فظهر ببرهان التوحيد فسادُ ما ذهبت إليه الثنويّة القائلين بإلهين اثنين، وبه يثبت أنّه تعالى واحد في أفعاله؛ أي لا شريك له في أفعاله"[31] نجد أنّه من كثرة تفريعاته في هذا الطرح دخل في طريقة السبر والتقسيم.

5) **طريقة السبر والتقسيم:** هو باب من أبواب الجدل يستخدم لإبطال كلام الخصم، وذلك يكون بذكر أقسام الموضوع وبيان أن ما يدّعيه الخصم ليس من خواصّ الدعوى، وقد استخدم الخاني رحمه الله تعالى طريقة السبر والتقسيم عند استدلاله على إيجاد الله تعالى للعالم بالاختيار وليس بطريق الإيجاب أو الطبع، واستخدم ذات الطريقة في إبطال كون الله تعالى فاعلاً بالطبع بدعوى عدم التلازم بين كون صانع العالم قديم، وبين أن يكون ما صدر عنه وهو العالم قديمٌ أيضاً، لجواز أن يتوقّف العالم على شرطٍ أو عدم مانع، وذاك عندما أبطل صحّة أن يكون الشرط والمانع قديمين أو حادثين، وأبطل القول بالإيجاب لأنّه يلزم عنه القول بقدم العالم[32] واستخدم أيضاً طريقة السبر والتقسيم لإثبات حدوث العالم[33].

6)**برهان التمانع:** استخدم أسلوب القياس الشرطي المنفصل والمتصل، وهو تشقيقٌ من السبر والتقسيم، وذلك عند استدلاله على الوحدانية من خلال الآية الكريمة: {لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا} (الأنبياء:22)[34].

---

29) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، الورقات 14أ، 14ب.

30) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، الورقات: 18ب، 19أ.

31) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 19أ.

32) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، الورقات: 16أ، 16ب

33) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 14ب.

34) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 19ب.

ثالثاً: المنهج الذوقي عند الخاني:

لم يستعمل الخاني في كتابه شرح الجزائريّة أسلوب الصوفيّة في فصولٍ كاملة؛ لأنّ التصوّف كما لا يخفى سلوكٌ وليس عقيدة، فقد استعمل أسلوب المتكلّمين في فصول الكتاب، ثمّ ذيّلها بمشرب الصوفيّة، كما فعل في نهاية فصل أوّل الواجبات والنظر في المخلوقات، وفصل فيما يجب من الوجود للإله المعبود، وغيرهما.

وحرص على عدم الخلط في مسالك المعرفة، فما يُدرك بالوجدان غير ما يُدرك بالعقل فمسالك المعرفة مختلفة، فقال:

"اعلم أنَّ إدراك أوليّة الحقّ وآخريّته أمرٌ عسير إلّا على الموفّقين أرباب الشّهود أهل الإحسان ... والحقُّ أنّ تصوّرَ وجوب الوجود صعبٌ على من أراد إدراكه بالقياس على الممكنات إدراكاً شهوديّاً كإدراك سائر الممكنات، وإنّما يدرك بنورٍ إلهيٍّ حاصل ببركة اتّباع الشارع صلوات الله تعالى عليه وسلامه"[35].

وقال بأنَّ معرفة الله تعالى قد تحصل بالإلهام أو بوساطة الرياضة الروحيّة، وقد دلّ على طريقتها، فقال رحمه الله تعالى: "وقد يدرِكُ من صفات الله تعالى بالذّوقِ لا بالعقل، وإن شئت قلْ بالعقل، لكنْ بعد تخلية النفس عن صفاتها الذّميمةِ، وتحليتها بالصفات الحميدة، شيئاً يعجَزُ مُدرِكُه عن الإفصاح عنه، فلا يمكنه التعبير عنه بالعبارة، وقد يمكنه الإشارة عن ذلك، ولا يفهمُها عن عبارته إلّا مَنْ هو متهيّءٌ ومستعدٌ إلى الكمال، وإنْ كانت درجتُه أدنى من درجتِه، والله الهادي ولا مُوجِدَ غيرُه"[36].

وقال: "المعارف لا تزيد وتكمل إلَّا بالرّياضة وهي ستَّةُ أشياءٍ: تقليل الطعام، وتقليل الكلام، وتقليل المنام، والاعتزال عن الأنام، والذكر المدام، والفكر التمام فيما حصّله المريد من قبل الدّخول في الرّياضة"[37]

انظر إلى عبارته السابقة: "والفكر التمام فيما حصّله المريد من قبل الدّخول في الرّياضة" والّتي تعني: النظر على قواعد أهل الحقّ الخالية عن الشرك الجليّ والخفيّ.

ولكن يجب أن نعرف أنّه ولو حصلت هذه المعرفة لبعض الأشخاص إلّا أنّه لا يصحّ التعميم، فإنّ معرفة الله تعالى أمرٌ نظريٌّ يحتاج إلى فكرٍ قد يطول وقد يقصر بحسب جلاء ذهن الناظر، فمعرفة الله تعالى نوعٌ من أنواع العلوم وليست فطرةً موجودة في الإنسان منذ ولادته، فالطفل المولود جاء إلى الدنيا لا يعلم شيئاً، قال تعالى: {وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلمُونَ شَيْئاً وَجَعَل لكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لعَلكُمْ تَشْكُرُونَ} (النحل:78)، وإنّما يمكن القول بأنّ الإيمان بوجود الله تعالى يوافق الفطرة الصحيحة السائقة للإنسان للوصول إلى الكمال وإشباع حاجاته الروحيّة، وذلك عن طريق اكتساب العلم بطريق أداته وهي النظر، ومن خلال منافذه المذكورة في الآية نفسها، وهي السمع والبصر والفؤاد.

وخلاصة ما وجدته عن التصوّف من خلال قراءتي لهذا القسم من الكتاب أنّ الخاني رحمه الله تعالى يقرّرُ:

---

35) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 20أ.

36) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 31أ.

37) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 22ب.

1) أنّ معرفةَ الله تعالى ممكنةٌ بوجه يليق بجلاله من خلال الأدلّة البرهانيّة القاطعة على سنن أهل السنة والجماعة، لأنّهم أهل الحقّ والعدل، ولكنّ هذه المعرفةَ لا تكون بمعرفة كنه الذات أو معرفة حقيقة الصفات، فهذا محالٌ في دار الفناء، قال في هذا:

"والحقّ أنّ صفاتِ الله تعالى لا تدخل تحت موازين العقول، لأنّها قديمةٌ والعقولُ حادثةٌ، والحادثُ لا يمكنه إدراك حقيقة القديم، وحدُّ العقول أنْ تُدْرِكَ أنّه لا بدّ لهذه المصنوعات من ذاتٍ غير مصنوعةٍ، بل هي موجودةٌ دائماً أزلاً وأبداً، لأنّها لو كانت مصنوعةً للزِم أنْ يكون لها صانعٌ، وذلك الصانع على هذا يلزم أنْ يكونَ له صانعٌ وهلمّ جراً، وهذا شيءٌ لا يُتَصَوَّرُ، وتُدْرِكَ أيضاً أنَّهُ لا بدَّ لهذه الذات من صفاتٍ، لأنَّ صانع هذا العالم لا يُتَصوَّرُ أنْ يكونَ غير عالمٍ، ولا غير مريدٍ، ولا غير قادر، إلى غير ذلك الصفات، وقد بُيِّنَت في هذا الكتاب، فهذا غاية إدراك العقول، فلا يمكنها معرفةَ كيفيّة تعلُّق علمه تعالى، وكيفيّة تعلُّق قدرته"[38]

2) أنّ المعرفةُ الممكنة للإنسان متفاوتةٌ بين الناس بحسب أحوالهم، فذكر أموراً من الرياضات يمكن من خلال فعلها والتحلّي بها أنْ تزداد معرفة الإنسان بربّه تبارك وتعالى بوجهٍ ما، ولكنْ بعد قيدٍ مهم هو الوتد المعوّل عليه والفيصل في هذه المعرفة ألا وهو: النظر الصحيح القائم على القواعد الحقّة، وذاك أنَّ ما يحصل من طريق التصوّف من المعارف ما هو إلّا فرعٌ عن المعرفة بالنظر، ولا يقوم فرعٌ دون أصله[39].

3) بعضَ الأمورِ الّتي نقلها عن السادة الصوفيّة وهي: المنع من زيادة الخوض في علم الكلام ومن كثرة الخوض في تفرّعاته، ومن الاشتغال بالردّ على الفلاسفة والفرق الإسلاميّة، وذلك خشيةً وشفقةً على طالب العلم من ضياع عمره فيما لا ينبغي، وذلك بعد تحصيله للضروريّات من معرفة وجود الله تبارك وتعالى ومعرفة صفاته[40]، وهذا ما رأيته من فعله، فلم أجد له كتاباً في علم الكلام إلّا هذا الكتاب الّذي بين أيدينا، ومن خلال دراسته لم أجد أنّه قد دخل بنقاشٍ مسترسلٍ مع أيٍ من الفرق الإسلاميّة وغير الإسلاميّة، وإنّما كان يُقرّر المذهب الحقّ، ويُشير إلى خطأ المذاهب الأخرى دون دليل أو بدليل مختصر عن طريق قياس الخلف، فبإثبات المذهب الصحيح مذهب أهل السنة والجماعة، تظهرُ أخطاء المذاهب الأخرى، وبالله التوفيق وهو الملهم للتحقيق.

أمّا الكتاب الّذي ألّفه في التصوف بالكامل هو كتاب: (السير والسلوك إلى ملك الملوك) عزّ وجلّ، فمن خلال عنوان الكتاب يمكن أن نتعرّف على مقصد الخاني منه: وهو السير في طريق الله تعالى والترقي في القرب منه بالأفعال وبالأحوال، ويكون ذلك باتحاد ظاهر الإنسان مع باطنه، وهذا يحتاج إلى فنون مجاهدات ومعترك مكابدات ورياضات نفسيّة وبدنيّة للوصول لما يبتغيه السالك من الانشغال بالله تعالى وعدم الالتفات إلى غيره، وقد شرحها الخاني بالتفصيل في هذا الكتاب.

38) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 31أ.

39) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 22ب.

40) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 22ب.

وقد أجاد الخاني في منهج هذا التأليف، فكان تأليفاً صوفيّاً ناضجاً ينمّ عن إحساسه بدوره كعالم ومعلّمٍ قام بالتعليم في أكثر من مدرسة كما ذُكِرَ هذا سابقاً، فقد كان حريصاً على نصح طلابه، _كما هي أخلاق المسلمين فإنّ بعضَهم لبعضٍ نصحةٌ_ فكانت فاتحة كتابه تبيّن أهمّية الصوفيّة ودورهم الأخلاقي في تربية الإنسان المسلم لله تعالى إسلاماً حقيقيّاً.

بدأ كتابه بمقدّمة شرح فيها المصطلحات والألفاظ الصوفيّة الّتي استخدمها في كتابه وبيّن حدّها؛ كي يُعلم المقصود من كلامه، ثمّ أتبعها بعشرة أبوابٍ وخاتمة، وكانت الأبواب في: ذمّ الدنيا ولذّاتها وبيان حقيقتها، وبيان مقامات النفس، والحثِّ على السلوك في طريقة الصوفيّة وبيان فضلها، وبيان الحجب الّتي تكون بين العبد وربّه، وبيان ما يحتاج إليه في تمزيقها ورفعها عن قلبه من توبةٍ وإنابة وتجرّدٍ عن الأسباب وغيرها من أمور لا بدّ للروح منها، وعدّد مراتب النفس وبيّن صفات كلٍّ منها وطريقة سيرها وعالمها ومحلّها وحالها وواردها وكيفيّة الترقّي إلى المقام الأعلى.

ثمّ ختم كتابه في بيان أحوال المرشد وبيان الأوصاف الّتي يُعرف بها من يصلح للإرشاد ومن لا يصلح، وبيّن صفات المريد القابل للسلوك وغير القابل، وبيّن مداخل الشيطان ودسائسه في محاولة إضلال أصحاب كلّ مقام بما يقدر عليه، أو ثنيهم عن سيرهم وترقّيهم[41].

وطريق السير إلى الله تعالى الّذي بسطه في كتابه (السير والسلوك): هو المحتوى نفسه الّذي ختم به كتابه (شرح الجزائريّة في التوحيد)، فقد كان الفصل الأخير من الكتاب بعنوان: "فصل ختم به النظم"[42] وقال في بدايته: أنّه وإن لم يكن هناك مناسبة خاصّة بين علم التوحيد والتصوّف إلّا أنّ بينهما مناسبة عامّة: فإنّ السلوك هو المنجّي من العذاب الأليم؛ لأنّه ثمرة العقيدة والإيمان، وقد كان فصلاً طويلاً بالنسبة لما سبقه من الفصول، بيّن فيه الآداب اللازمة للسائر في هذا الطريق، والصفات الّتي يجب أن يتحلّى بها، ووضّح له الطريق، وعرّفه بالمعاناة الّتي سيلاقيها من نفسه وحظوظها، وبما ستسببه له من عوائق: كالكسل والحرص والبغض والعجب والكبر والرياء وآفات اللسان وغيرها، وبين كيفيّة علاجها ومداواتها، وأنّ أهمّ هذه العلاجات هي التبرّئ من حول النفس وقوتها واللجوء إلى حول الله وقوّته، وكثرة الذكر والتضرع إلى الله تعالى، وذكر مقامات النفس وأحوالها.

فمِمّا تقدّم نجد توافقاً وتكاملاً بين كتابيه: فالتكامل بين علم العقيدة وبين ثمرته وهي: إصلاح السلوك، والتوافق فيما بينهما في دلالتهما على الطريق الموصل إلى رضوان الله تعالى.

قال تعالى: {إنَّ الّذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ سيجعلُ لهمُ الرحمنُ وُدّاً} (مريم: 69).

{إنَّ الّذينَ قالوا ربّنا اللهُ ثمَّ استقاموا تتنزَّلُ عليهمُ الملائكةُ ألّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشِروا بالجنَّةِ الّتي كُنتمْ توعدونَ} (فصّلت: 30).

المطلب الرابع: بعض المسائل التي عالجها الخاني في كتابه:

41) انظر: الخاني: السير والسلوك إلى ملك الملوك، ص: 40، 41، 73، 91، 109، 125، 207.

42) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، الورقة: 60ب إلى نهاية المخطوط في الورقة: 71.

أوّلاً: موقف الخاني من نظرية المعرفة:

أدوات المعرفة عند الخاني كما عند علماء السنة هي الحسُّ والعقل والخبر. والحكمة عنده علمٌ يُعرف به حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشريّة، لا بحسب الأمر نفسه، فإنّ معرفة الأشياء بحسب الأمر نفسه مخصوص بعلم الله تعالى، وبمن اختارهم من الأنبياء والأولياء[43].

العقل له مدخلٌ في بعض الأشياء وهي أعظمها وأصولها؛ فبالعقل يُعرف وجوبُ الوجود له تعالى ووجوبُ صفاته، وغيرُ ذلك مما يُدرك بالعقل، أمّا الغيب من أمور الحشر والنشر وغيرها فلا مدخل للعقل فيه، وإنّما طريق معرفته الخبر الصادق، فلذا لا يجوز استخدام العقل في غير مُدركاته، وإقحامه في غير محلّه، مما حقُّ معرفته الخبر، كما فعل الحكماء والمنجّمون وأصحاب الهيئة، عندما استخدموا العقل والقياس فيما لا ينبغي، فأدّى بهم إلى حصول خلل في النتائج، كقولهم في العنصريّات والفلكيّات وغيرهما مما حقُّ معرفته طريق الخبر الصادق، فإنَّ ما يدركه العقل شيء يسير بالنسبة إلى ما يعلمه الله تعالى من حقائق الأشياء وتفاصيل أنواعها[44]، قال: (وقولُه "من قاس بالعقل صنع الله لم ينل" تعريضٌ بالحكماء وأقوالهم الواهية، وإرشاد إلى طريق الأدب مع الله ورسوله بأنَّ الأشياء كلَّها غيرُ معلومةِ الحقائقِ لغير الله إلّا ما تفضَّل بتعليمه على لسان نبيّهِ صلّى الله عليه وسلّم)[45].

قال مشيراً إلى طرق موارد العلم: (لا تفهمْ من هذا الكلام أنّ العقل ليس مدخلٌ في شيءٍ، بل له مدخلٌ في بعض الأشياء وهي أعظمُها وأصولُها؛ لأنَّه به يُعرفُ وجوبُ الوجودِ له تعالى ووجوب صفاته، وبه يُعرف صِدْقُ المرسلِين، وغيرُ ذلك ممَّا جعلَهُ اللهُ تعالى يُدرَك به، ولا يُعرفُ به أحوالُ ما بعدَ الموت من الحشرِ والنشر والجنّة والنار ورؤية الله تعالى، فإذا استعملت العقل في مدركاته فلا تكلِّفْهُ ما ليس في وُسعهِ، واعتمد في ذلك على قول مَنْ ثبتَ صدقُه بالعقل، وهو النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم، فخذْ هذه النصيحةَ واعتمدْ عليه تربحْ إن شاء الله تعالى)[46].

قال بوجوب النظر في المخلوقات من السماوات والأرض وما بينهما، فإنّه طريق الدلالة على الحقّ، فقال: (الغرض من ذكر هذه المصنوعات التفكُّرُ والاعتبار بحدوثها، وافتقارها إلى تخصيص حكيمٍ قادرٍ مختارٍ واجبِ الوجودِ، منزّهٍ عن المثل والشريك في ذاته وصفاته وأفعاله)[47]، وهذا دليل القرآن

أمر بمعرفة ما يجب لله تعالى وما يجوز له وما يستحيل عليه، وهذا يقتضي معرفة أحكام الوجوب والاستحالة والإمكان، ولكنّه لم يُصرّح بهذا في كتابه، بل أرشد إلى وجوب معرفة الأمور الّتي تندرج تحتها، (فالواجب على كلِّ مسلمٍ معرفةُ مولاهُ ومعرفةُ ما يجبُ له تعالى وما يستحيل عليه وما يجوز له، وكلُّ واحدٍ من هذه الثلاثةِ له

43) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 8ب.
44) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة 9ب.
45) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 10ب.
46) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، الورقات: 8أ، 8ب،
47) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 10أ.

أفرادٌ كثيرة فيجب عليه أنْ يعرف جميع هذه الأفراد، لكنْ لا بمجرَّدِ السماع من الغير بل يعرفَ كلَّ واحدةٍ منها بدليلٍ)[48]

ثانياً: طريقة الخاني في إثبات وجوب واجب الوجود:

سلك الخاني في مسألة إثبات وجوب وجود الله تعالى مسلكَ المتكلّمين، وجمع معه مذهبَ أهل التصوّف بطريقة بديعة، فقرّر أنّ إثباتَ وجودِ الله تعالى يكونُ بإقامة البراهين العقليّة، وتقرير أدلّتها بالطرق المنطقيّة، كدليل السببيّة ودليل بطلان الرجحان دون مرجّحٍ ودليل الغائيّة وغيرها.

وذكر في سبيل ذلك أدلّةً عدّة، منها: دليل الحدوث، ودليل الإمكان، ودليل التناسق والإتقان والحكمة والنظام، فاستشهد بحدوث الجواهر والأعراض وبإمكانهما على إثبات وجود واجب الوجود.

ثمَّ قرّر أنّه بعد إحكام العقيدة بالأدلّة البرهانيّة اليقينيّة القائمة على النظر يجب سلوك طريق الرياضة؛ فإنّ المعارف الحاصلة بالتصوّف فرعٌ على المعرفة بالنظر، ولا تزيد ولا تكمل المعارف إلّا بها، فيحصل السالك على بصيرة وموهبة تكون سبباً لتجلّياتٍ وكشوفٍ لعلومٍ لا سبيل للاطلاع عليها بالاستدلال، ولا بطريق الاعتبار، بل بمحض الإنعام والإلهام، فيقذف الله تعالى في القلب نوراً يزول به الوهم المعارض للعقل، فيدرك من صفات الله تعالى بسبب ذلك النور ما لا يدركه غيره[49]

نلحظ أنّه قد برهن على مسألة إثبات وجود الله تعالى بطريقتين من طرق النظر:

الطريق الأوّل: بيان توقّف وجود العالَم على وجود الصانع، وكون ذلك الصانع واجب الوجود، وذلك لأنَّ الممكنات مفتقرةٌ إلى مَنْ يُخصّصها ويُوجدها بإرادته وقدرته[50]

والطريق الثاني: بيان أنّ الطريقَ الموصل إلى معرفة وجوده تعالى هو الاعتبارُ في مخلوقاته، أي طريقُ النظر فيها؛ وهو ملاحظة أمورٍ عامّةٍ لتحصيل أمورٍ مجهولةٍ، وذلك يكون بالاستدلال بحدوث المخلوقات، وما يستوجبه ذلك من معرفة توالي الصفات الحادثة على الأجرام، الّذي يدلُّ على حدوثها واحتياجها إلى محدثٍ[51]

ثالثاً: موقف الخاني في الصفات:

سلك الخاني رحمه الله تعالى في إثبات الصفات لله تعالى مسلك أغلب الأشاعرة، فقرّر أنّ للصفات أنواعٌ وهي: الصفات النفسيّة، والصفات السلبيّة أي التنزيهيّة، وصفات المعاني، والصفات المعنويّة، والصفات الفعليّة، والصفات الجامعة، وصفات السمع، وذكر صفة الإدراك، ويمكن عرض مجمل موقفه في مسائل الصفات في النقاط التالية:

48) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 4أ.

49) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، الورقات: 23أ، 23ب.

50) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 14أ.

51) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 15أ.

1)**الصفة النفسيّة وهي وجوب الوجود له تعالى:** ثابت بالأدلّة اليقينيّة، لا يقبل الاحتمال، ويُستدلُّ عليه بالاعتبار بمخلوقاته، ولا يُنكره إلا معاندٌ مطموس البصيرة، يقرّر الخاني ذلك بقوله: (دلالة العوالم على وجوب وجوده تعالى، ووجوب وحدانيّته، وباقي صفاته في غاية الوضوح لذوي العقول، وأمّا ذووا الجهل فهم كالأنعام في انطماس البصيرة، لعدم توفيقِهم فلا يصيرُ لهم شيءٌ من العوالم دليلاً على الله، ولا على رسالة رُسُلِه)[52]

2)الله تعالى واحدٌ في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، لا مثل له ولا نظير، له الملك التامّ، متّصفٌ بصفات المجد، ففي ذلك يقول: (المراد بوحدانيته تعالى كونه: واحداً في ذاته وصفاته وأفعاله)[53]

3)هو سبحانه متّصفٌ بالقدم والبقاء، وأوّليّته عين آخريّته، يعني: أنّ التغاير في المفهوم، لا في الماصدق، فليس بينه وبين غيره لا قبليّة ولا بعديّة زمانيّة، وهذا مُستفادٌ من وجوب الوجود له تعالى وجلّ، وأنّ وجوده ليس مستفاداً من غيره، بل هو قائمٌ بذاته تبارك وتعالى، وفي هذا قال: (إن عرفت معنى وجوب الوجود عرفت أنّ أوليّته عين آخريّته، والتّغايرُ في المفهوم لا في الماصدق)[54]

4)يستحيل في حقّه مماثلة الحوادث، أو أن يقوم في ذاته حادثٌ؛ فيستحيل في حقّه الحلول والتحيّز والمماسّة، والمحاذاة والقرب والبعد بالمسافة، والكُبْرُ والصُّغر، وغيرها من صفات الأجرام، فهو الآن على ما عليه كان، ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصيرُ، ومن نحو ذلك قوله: (لمّا ثبت انفراده تعالى بوجوب الوجود: لزم ألّا يكون معه شيء في الأزل، وهو دليل على عدم اتّصافه تعالى بالحلول في المكان وغيره)[55]

5)الاستواءُ والوجه واليد والنزول وما أشبهها صفاتٌ لله تعالى على ما يليق بجلاله، ورد السمع بها، فتؤوّل إمّا إجمالاً؛ وهو التنزيه عن الظاهر المستحيل، وإمّا تفصيلاً فيحمل على أقرب مجازٍ، فتحمل اليد على القدرة، والاستواء على الاستيلاء، وكان الخاني رحمه الله تعالى مفوّضاً فلم يقل بالتأويل التفصيلي؛ لأنّه ظنّيٌّ، وأوجب الاكتفاء بالتنزيه، فأثبت صفات السمع[56] الّتي وردت بها النصوص على ما يليق بجلال الله تعالى، وهي غير الصفات السبع، فقال: (اتَّفق أهلُ السُّنَّةِ على أنَّه يجبُ الحُكمُ بنفيِ كلّ مستحيلٍ عنه تبارك وتعالى مِن الجارحةِ وغيرِها، واختلفُوا بعدَ نفيِ المستحيلِ عنه على قولين: الأوَّلُ وهو مذهبُ السَّلفِ المستغرقينَ في خشيةِ ذي الجلال: الوقفُ عمَّا وراء ذلكَ، وذلكَ بعدَ جزمِهم بالتَّنزيهِ عن الظَّاهرِ المحالِ، ويَقْرُبُ من هذا المذهبِ قولُ أبي الحسن الأشعريّ رضي الله عنه ومن تابعه: إنَّها صفاتٌ لا يَعلمُ حقائقَها إلا اللهُ تعالى (...) والقولُ الثَّاني وهوَ مذهبُ المتأخِّرينَ: التأويلُ وإرجاعُ بعضِ ذلك إلى الصِّفاتِ السَّبْعِ وبعضُه إلى غيرها (...) والحقُّ أنَّ المذهبَ

52) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 15أ.

53) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 18أ.

54) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 20أ.

55) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 20ب.

56) سمّاها صفات السمع لأنها ذكرت في النصوص، ولم يدلّ العقل عليها.

الذي لا خوف فيه هو مذهبُ السَّلف ومذهبُ الأشعريّ؛ لأنَّ مسايلَ أصولِ الدين يقينيَّةٌ، والتأويلُ لا يفيدُ إلّا الظنَّ)[57].

6)عدَّ الله تعالى سبعَ صفاتٍ قديمة قائمة بذاته تعالى، فلا هي هو ولا هي غيرُه، وهي الحياةُ والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، وتُسمّى صفات المعاني، وهي علّ للصفات المعنويّة؛ وهي عبارةٌ عن صفاتٍ ثابتة للذات لا تتّصف بوجودٍ ولا عدمٍ، وهي المعبّر عنها بالأحوال، وهي كونه تعالى حيّاً عالماً مريداً قادراً سميعاً بصيراً متكلّماً، وهي أيْ صفات المعاني: واجبة الوجود لذاته تعالى[58]

7)يستدلُّ الخاني على وجوب وجود الحياة والعلم والإرادة والقدرة لله تعالى من وجود العالم، لأنَّ وجود العالم حادثٌ مفتقرٌ إلى صانع ضرورةٍ، والخالق لهذه المصنوعات لا يكون إلّا حيّاً ضرورة ولا بدَّ أنْ يكون عالماً بما يفعله، ومريداً مختاراً له، وقادراً عليه، وهذه الصفات الأربعة ثابتة بالعقل بدلالة العالَم، قال في هذا: (الدليل على الحياةِ والعلم والقدرة والإرادة وجودُ العالَم؛ إذ وجودُه مفتقرٌ إلى صانع بالضرورة، والصَّانع لهذه المصنوعات البديعة لا يكون إلا حيّاً وهو بديهي، ولا بدَّ وأنْ يكون عالِماً لأنَّ هذا الصُّنع على هذا النّمط المشاهَد لا يصدر من جاهلٍ، وأنْ يكون مريداً لما تبيَّن أنَّه تعالى فاعلٌ بالاختيار، وقادراً إذ العاجزُ لا يقدر على إيجاد هذا العالَم، فهذه الصفاتُ الأربعُ ثابتةٌ بالعقل لاحتياج العالَم إليها)[59]

8)لله تعالى صفتا السمع والبصر، ومورد معرفتهما النقل، ومثلهما صفة الكلام، ولا يصحُّ الاستدلال عليهما بالعقل، لِما فيه من وهم قياس الغائب على الشاهد، (فالحقُّ الاعتماد في السّمع والبصر وفي صفة الكلام أيضاً على النّقل)[60]

9)سمعه وبصره تبارك وتعالى صفتان أزليّتان قائمتان بذاته، منزّهتان عن الجارحة، وسمعه ليس مقصوراً على الأصوات كسمعنا، (يسمع ذاته وصفاته في الأزل وفيما لا يزال، ويسمع فيما لا يزال ذوات العوالم وأعراضها)[61]، وذلك لأنّ المصحّح لتعلّقهما الوجودُ، وتخصيصه ببعضها يحتاج إلى مخصِّص وهو محالٌ، وإنكار هاتين الصفتين كفرٌ، ولا يجوز إرجاع معنيهما إلى العلم لاختلاف المتعلّقات، فالعلم يتعلّق بالموجود وبالمعدوم، أمّا السمع والبصر فيتعلّقان بالموجودات فقط، فإنَّ من أسمائه تعالى: السميع البصير العليم، والأصل عدم الترادف[62]

10) الله تعالى عالمٌ بعلمٍ واحدٍ أزليٍّ يتعلّق بالواجب وبالمستحيل وبالممكن، ويُستدلُّ على علمه بإحكامه مصنوعاته، والعلم صفةٌ زائدةٌ على ذاته تعالى تنكشف بها المعلومات، ويتعلّق العلم بالممكنات قبل تعلّق القدرة

57) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 36ب.

58) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، الورقات: 25ب، و26أ.

59) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، الورقات: 27أ و27ب.

60) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة 27أ.

61) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 27ب.

62) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 27ب.

الأزليّة فيها، لأنّ القدرة الأزليّة لو تعلّقت بالممكنات في الأزل لكان العالم قديماً، وبهذا تقوم الحجّة لله تعالى على العبد عقلاً، وعلمه تعالى واحدٌ منزّهٌ عن التجدّد والتعدّد وعن وصفه بالكسب أو البداهة، بل هو صفةٌ أزليّةٌ ينكشف بها المعلوم[63]

11) إرادةُ الله تعالى وقدرتُه صفتان أزليّتان تتعلّقان بجميع الممكنات، وإرادتُه تعالى تقوم على الحكمة، وهي منزّهةٌ عن الأغراض والعلل، سواءٌ كان الغرض راجعاً إليه أم إلى خلقه، لأنّه هو الغنيُّ بذاته، وكلُّ شيء مفتقرٌ إليه، فلا يجب عليه مراعاة الصالح والأصلح، ولكنَّ أفعاله تعالى لا تخلو عن الحكمة[64].

12) سلك الخاني منهج أهل السنّة في نفي الجبر والقدر، وأثبت أمراً بين الأمرين، وهو أن يكون المؤثّر في فعل العبد مجموع خلق الله تعالى واختيار العبد، فأفعال العبد الاختياريّة مخلوقةٌ بقدرة الله تعالى وعند قدرة العبد – قصده– لا بها، فإنَّ الله تعالى هو الخالق لفعل العبد ولقدرته عليه في آنٍ معاً، وأمّا الكسب فهو: تعلّق القدرة الحادثة بالفعل من غير تأثيرٍ، ومن ذلك قوله: (الاختراع: هو إيجاد الممكن أو إعدامه، وهو مختصٌّ بالله تعالى، وأمّا الكسبُ المنسوبُ للعبدِ: فهو عبارةٌ عن تعلُّق القدرةِ الحادثة بالفعل عند إيجاد الله تعالى ذلكَ الفعلَ بالقدرة القديمة، فلا تأثيرَ له أعني الكسبَ، فلا يُسمَّى اختراعاً، وتعلُّق هذه القدرة الحادثة كتعلُّقِ البصرِ في المبصَرات من غير تأثيرٍ)[65]، فاللهُ تعالى هو الخالقُ المخترع لجميع الممكنات، وتستندُ إليه وحدَه كلُّ المفعولات، قال: (الأفعال كلّها مسندة إلى الله عزّ وجلَّ بلا واسطة)[66].

13) الاستطاعة وهي القدرة الحادثة مخلوقةٌ قبل الفعل المقدور لا عنده، ولكنّها لا تبقى زمانين كسائر الأعراض، والموجود قبل المقدور أمثالُها، وهذا الرأي الّذي ذهب إليه الخاني وافق به الشارح السنوسي، وخالف به ناظم القصيدة الجزائري الّذي ذهب إلى أنّ الله تعالى يخلق الاستطاعة عند الفعل المقدور لا قبله[67]

14) أثبت لله تعالى الكلامَ النفسيّ، وهو صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تتنزّه عن التقدّم والتأخّر والتجدّد والانقطاع، وهو مغايرٌ للعلم وللإرادة، وهو بدهيُّ التصوّر لا يحتاج إلى دليل، (والكلامُ الّذي ثبت له تعالى هو الكلام النّفسيُّ، وهو صفةٌ قديمةٌ معبَّرٌ عنها بالعبارات المختلفات، لا الكلامُ اللفظيُّ خلافاً للحشويَّةِ)[68]

15) يُعبَّرُ عن الكلام النفسيّ القديم بالعبارات المختلفات، فالمقروء بالألسنة والمحفوظ في الصدور والمكتوب في المصاحف هو كلام الله تعالى القديم، والقراءةُ والحفظ والكتابة حادثةٌ، (فليس فيها يعني الحروف سوى دلالتها على الكلامِ النفسيّ القائمِ بذاته تعالى)[69] ولا تناقض بين القول بتنزيه كلام الله تعالى عن اللفظ الحادث المستلزم

63) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، الورقات: 28أ، 28ب.
64) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، الورقات: 31أ، 31ب.
65) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 16ب.
66) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 15ب.
67) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 34ب.
68) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 35أ.
69) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 36ب.

للتركّب والتقدّم والتأخّر، وبين القول بأنّ كلام الله تعالى قديمٌ، لأنّ (المقروءَ والمحفوظ والمكتوب دالٌّ على كلام الله النفسيّ)[70]

16) لا يلزم الحلولُ من كون المقروء والمحفوظ والمكتوب كلام الله تعالى القديم، فإنّه كلامٌ قديمٌ معبّرٌ عنه بالعبارات الحادثة (ولا يلزمُ مِنْ كونِ المقروءِ والمحفوظ والمكتوبِ كلامَ اللهِ القديمَ الحلولُ، لأنَّك لو قرأتَ أو حفظْتَ أو كتبتَ ما في نفسِ أحدٍ من البشرِ من الكلامِ، فلا يُقال أنَّ ما في نفسه قد حلَّ بكَ، ولا شكَّ أنَّ ما قرأتَه وحفظتَه وكتبته كلامُه النفسيُّ، وأمّا قراءتُك وحفظُك وكتابتُك لكلامِه فلا شكَّ في تجدُّدِها عليك وقيامِها بك)[71]

17) يقول الخاني رحمه الله تعالى إنّ موسى عليه السلام سمع كلام الله تعالى النفسيّ القديم الّذي ليس بحرفٍ ولا بصوتٍ، وأنَّ هذا ممكنٌ في حقِّ العبد الحادث، إذا رفع الله تعالى عنه الموانع والحجب المقتضية للصمم المعنويّ، ومثل ذلك إمكان رؤية المؤمنين لربّهم في الجنّة، قال عن هذا المعنى: (إنَّ ما سمعَه موسى عليه السلام هو كلامُ الله تعالى القديمُ النفسيُّ الّذي ليس بحرفٍ ولا صوتٍ، ولا أوَّل له ولا آخر لكنْ بعد أنْ أزالَ اللهُ تعالى عن موسى الموانعَ والحجب المقتضيةَ للصَّممِ المعنويّ، وقوَّاه تعالى بما يعينُه على الثّباتِ مع تجلّي صفةِ الكلام لأنَّ الحادثَ لا يثبتُ مع القديم)[72].

18) صفات الله تعالى لا تدخل تحت موازين العقول، وغاية ما يمكن للعقل معرفته هو وجوب وجود الحقّ تبارك وتعالى خالق المصنوعات، ووجوب وجود صفاته، ولا يمكن للعقل معرفة كيفيّة تعلّقات هذه الصفات، فلا يصحُّ تخصيص صفاته تعالى بالعقل، فلا تُخصّص القدرة بغير أفعال العباد الاختياريّة، ولا تُخصّص الإرادة بالطاعات وبالصالح والأصلح، ولكن يمكن إدراك شيءٍ منها بالذوق لا العقل[73].

19) عرّف صفة الإدراك له تعالى بأنّها: إدراك الملموسات والمشمومات والمذوقات، وعرض أقوال أهل السنّة فيها، ولكنّه لم يُعقّب ولم يُرجّح، ولعلّ ما دعاه للتوقّف: عدمُ ورود نصٍ قرآنيٍّ، وإمكانُ إرجاعها إلى صفة العلم[74].

الخاتمة:

وبعد فإني أرجو أن أكون قد توصّلت إلى ما يخدم الهدف من البحث؛ بأنْ تبيّنتْ لنا معالمُ انتشار العلم والعلماء في مدينة حلب أثناء مرحلة الجمود والتوقّف العلميّ في العصر العثمانيّ، وبيان الجهود العلميّة لواحدٍ من أعلامهم، وما خلّفه من آثار، لتكوّن مع جهود غيره من العلماء جسراً ممتداً لمواصلة البناء في ركب الحضارة الإنسانيّة، فإنّ أمّة سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم لا تلبث أن تخبو لتنشط، وتكبو لتهبّ وتعيد مجداً بناه لها الدين، وليس ينقطع الخير عن هذه الأمّة ما دام الجديدان يتعاقبان، وهذا ينبهنا إلى ضرورة أخذ دورنا في ركب

70) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 35ب.
71) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 35ب.
72) الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 36أ.
73) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، الورقات: 29أ ب، 31أ.
74) انظر: الخاني: شرح الجزائريّة في التوحيد، ورقة: 36ب.

البناء الحضاريّ للبشريّة، والسعي بكل ما أوتينا من قوّة للانطلاق في معارج العمل والإنتاج في مختلف المجالات، لا سيما المجالات الفكريّة والفلسفيّة، فهي كما لا يخفى القائدة لغيرها من المجالات الاقتصادية والسياسية والعلميّة.

وفيما يلي ملخّصٌ لأهمّ النتائج العلميّة الّتي توصّلت إليها من خلال هذا البحث:

1) بيان الأمور الّتي أدّت إلى التأخر الفكري النسبي والجمود العلمي في القرن الحادي عشر الهجري.
2) معرفة كيفيّة استمرار انتشار العلم والتعلّم في عصر الخاني.
3) التعرّف على حياة الخاني ومسيرته العلميّة، كمثال عن بعض علماء حلب في عصره.
4) التعرّف على مصنّفات الخاني وجهوده وآثاره.
5) تقديم دراسة وافية عن كتابه: "شرح الجزائريّة في التوحيد".
6) بيان التوافق والتكامل بين علم الكلام والتصوّف عند الخاني.
7) توضيح الصورة الصحيحة لسلوك التصوّف القائم على العلم، البعيد عن الغلو والشطح.
8) استقراء أقوال الخاني في أهمّ مسائل العقيدة والتوصّل من خلال ذلك إلى تحديد أنّ مذهبه الاعتقادي كان على وفق مذهب السادة الأشاعرة ومعتدلي الصوفيّة.
9) استخلاص أهمّ خصائص عقائده في علم الكلام من خلال التعرّف على نظريّته في المعرفة، ونظريّته في إثبات وجوب الوجود لله تعالى، ونظريته في الصفات.
10) التعرّف على منهجه في الاستدلال النقلي والعقلي والذوقي.

المراجع:

1. ابن الشحنة، محمد. (1984م). الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب. دمشق: سوريا، دار الكتاب العربي. ص 327.
2. ابن مريم، محمد. (1908م). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. الجزائر. المطبعة الثعالبيّة. ص392.
3. أوزتونا، يلماز. (1988). تاريخ الدولة العثمانيّة. ط1، ترجمة عدنان سلمان، إستانبول: تركيا، مؤسسة فيصل للتمويل، ص680.
4. أوغلي، إحسان. (1999م) الدولة العثمانيّة تاريخ وحضارة. ترجمة صالح السعداوي، إستانبول: تركيا، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الإسلاميّة، ص1120.
5. البغدادي، إسماعيل. (1951م). هديّة العارفين في أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين. طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة، إستانبول: تركيّا، مؤسسة التاريخ العربي، ص1800.
6. بيّات، فاضل. (2003). دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني. دار المدار الإسلامي، ص488.
7. حاجي خليفة، مصطفى. (1941م). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. بغداد: العراق، مكتبة المثنّى، ص1023.
8. الحفناوي، محمد. (1906م). تعريف الخلف برجال السلف. الجزائر. بيير فونتانة الشرقيّة. ص832.
9. الخاني، قاسم. (2002). السير والسلوك إلى ملك الملوك. ط1. القاهرة: مصر. مكتبة الثقافة الدينيّة. ص340.
10. الزرعي، أحمد خيري. (2002م) العقود اللؤلؤيّة في الطريقة المولويّة، تأليف الشيخ عبد الغني النابلسي، دراسة وتحقيق. درجة الماجستير. قسم التاريخ. كلية الدراسات العليا. جامعة النجاح الوطنيّة. نابلس: فلسطين، ص235.
11. الزركلي، خير الدين. (1980م) الأعلام. ط5، بيروت: لبنان، دار العلم للملايين. ص1187.
12. سعد الله، أبو القاسم. (1998م). تاريخ الجزائر الثقافي. ط1، بيروت: لبنان، دار الغرب الإسلامي، ص993.
13. الشيال، جمال الدين. (2017م). الحركات الإصلاحيّة. مؤسسة الهنداوي، ص146.
14. الصباغ، ليلى. (1986م). من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأوّل. ط1، سوريا. الشركة المتحدة. ص710.
15. الصلابي، علي محمد. (2001م). الدولة العثمانيّة عوامل النهضة وأسباب السقوط. ط1، دار التوزيع والنشر الإسلاميّة، ص584.
16. طقوش، عمار. (2011م). التاريخ الإسلامي الوجيز. ط5، بيروت: لبنان، دار النفائس، ص432.

17. الغزّي، كامل. (1419م). نهر الذهب في تاريخ حلب. ط2، حلب: سوريا، دار القلم. ص640.
18. الغزّي، محمد. (1997م). الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة. ط1، بيروت: لبنان، دار الكتب العلمية، ص809.
19. الكتاني، عبد الحي. (1981م). فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات. ط2. بيروت: لبنان، دار الغرب الإسلامي، ص1183.
20. بك، محمد فريد. (1896م) تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة. ط2، بيروت: لبنان، دار النفائس، ص411.
21. المحبي، محمد أمين. (2006). خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. بيروت: لبنان، دار الكتب العلميّة، ص2040.
22. المرادي، محمد خليل. (1997م). سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر. بيروت: لبنان، دار الكتب العلمية، ص560.
23. نويهض، عادل. (1980م). معجم أعلام الجزائر. ط2. بيروت: لبنان. مؤسسة نويهض الثقافيّة. ص432.
24. ياغي، إسماعيل. (1416هـ). الدولة العثمانيّة. ط1، الرياض: السعوديّة، مكتبة العبيكان، ص328.
25. سركيس: يوسف إليان. (1928). معجم المطبوعات العربيّة. مصر. مطبعة سركيس ص2042.
26. مخطوط
27. الخاني، قاسم بن صلاح الدين الخاني الحلبي: مخطوط شرح الجزائريّة في التوحيد. مصورة عن مخطوطه المحفوظ في مكتبة الأسد الوطنيّة بدمشق، برقم: (17971). وهي وقف للتكية المولوية بحلب، تتألف من إحدى وسبعين لوحة، كل لوحة من صفحتين، بقياس 20×15سم، مكتوبة بخط نسخي جيد، متأثرة بالرطوبة والحموضة، لم يتضح عليها اسم الناسخ.